الفعالية الحضارية الإسلامية
بين التنظير والتطبيق

يقع بعض المفكرين المسلمين فى تناقض شديد بين مستوى شمول الإسلام والقرآن لكل شىء: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، ومستوى المطالبة القرآنية والإسلامية الملحة بالمشى فى الأرض والتفكُّر فى خلق السماوات والأرض، وفى النفس الإنسانية: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، والمطالبة الملحة أيضا بطلب العلم عبر مساحة قرآنية تربو على سبعمائة آية، علاوة على الآثار النبوية القولية والفعلية.

ولو أننا تعمقنا فى القرآن وفى السنة النبوية لوجدنا الموازين معتدلة وواضحة بين مستوى «التفصيل والتنظير» الذى وضع الإسلام معالمه فى كل مجال من مجالات الفكر والحياة؛ من خلال عدد من الثوابت والمعالم التى تحدد الفيصل، أو تحدد الفروق بين الواجب، والحرام، والمكروه، والمباح... والمستوى العقلانى التطبيقى الذى به وحده يزدهر التنظير ويُكسى عظمُه لحمًا، وتتفتح آفاقه وتتواصل معطياته عبر العصور!!

وكما يخطئ بعض المسلمين فى الفروق بين المستويين؛ فيتصورون الاقتصاد الإسلامى مجرد الابتعاد عن الربا والاحتكار والغش؛ والأخذ بالمضاربة، والمرابحة، والمتاجرة، ويتصورون الأدب مجرد مواعظ أو ضوابط أخلاقية؛

كذلك يخطئ أعداء المسلمين حين يؤمنون بالتغير الدائم والحركة المستمرة، دون ثوابت، أو أصول، أو معالم ؛ تضع الإشارات الكبرى، وتوجه المسيرة البشرية فى كل العصور إلى الطريق القويم الذى يجب أن يتجهوا إليه، وأن يبدعوا فيه ؛ مدركين ما ينبغى لهم وما لا ينبغى ؛ مما قد يعجز عقلهم عن إدراكه، ومما قد يدركونه فى مرحلة، بينما يغيب عنهم فى مرحلة أخرى ؛ ولهذا زودتهم العناية الإلهية به من خلال الوحى الصحيح، وهم بعد ذلك مطالبون بالإبداع فى مجال التطبيق، معتمدين على عقولهم وطاقاتهم، مستنيرين بالثوابت والأصول، مستجيبين - فى الوقت نفسه - لتوجيه الرسول - عليه الصلاة والسلام - : «أنتم أعلم بأمور دنياكم»، مؤمنين بأن المعادلة بين التنظير والتطبيق لتحقيق الفعالية معادلة واضحة، لكن بعض المسلمين أضاعوا معالمها بين إفراط وتفريط !!

لقد درج كثير من المسلمين على معالجة تفسير القرآن وفقهه بطريقة فرعية وحرفية وجزئية . . . دون أن يتعاملوا معه بطريقة كلية شمولية، يستمدون منه القيم القرآنية المطلقة، والقوانين الثابتة، ومفاتيح التعامل مع سنن الله الكونية والاجتماعية . . . ومن ثم يستخلصون الإضافات الصالحة لتطوير التنظير !! ويا للأسف كان من نتيجة هذا أن انحرفت مسيرة المسلمين عن المنهج القرآنى المعرفى والتجريبى ؛ الجامع بين العقلية والمادية الحسيّة فى إطار محكم . . . وسيطر على فكرهم - فى كثير من العصور - المنهاج اليونانى، ولا سيما بعد أن تُرجمت كتب الإغريق بمؤازرة الدولة العباسية (الخليفة المأمون) فى القرن الثالث الهجرى . مع أن العكس - أى ترجمة المنهجية المعرفية القرآنية إلى اليونانية وغيرها - كان هو الصحيح، فنحن المسلمين المنطلقين من القرآن الكريم أقوم فكرًا، وأنْقى تصورًا، وأزكى عقيدة، وأقدرُ على قَدْر الله حق قَدْره، واحترام السنن الكونية والتاريخية ؛ لو بقى نهرنا الفكرى سليمًا لا يعكر صفوه شوائبُ وثنية أو عقلية منحرفة !!

إن التصور القرآنى للكون والإنسان والحياة هو أصدق تصور ظهر فى التاريخ بهذا الشمول، وهذا التوازن . . . إنه الدليل الأكبر على عظمة الخالق الذى يتطابق كتابه المسطور مع كونه المنظور !!

ومن المعروف أن قدْرًا كبيرًا من موضوعات القرآن وقضاياه يعالج ما يُعرف بالقصص القرآني، أو تاريخ الأنبياء وحضاراتهم، وتاريخ الأقوام الماضين، من مندثرين، وممن بقيت لهم امتدادات وشواهد. . . وهذه المعالجة لم تلق هذا الاهتمام ليكون القرآن كتاب تاريخ، ولا لإثبات إعجاز القرآن التاريخي فحسب؛ بل قصد بها - إلى جانب ذلك - أن يستوعب المسلمون سنن الله، وأن يلتزموها، وألاّ يحاولوا القفز من فوقها، وأن يدركوا أن تمكينهم في الأرض مشروط بالفقه بهذه السنن والتزامها في الحركة التاريخية والابتعاد عن التواكلية والعفوية، أو ما يسمى بإسقاط التدبير !!

فالاعتماد على الله والتوكل عليه - بمعناهما الحق - يوجبان فقه المفاتيح والأساليب والوسائل التي خلقها الله - سبحانه - وجعلها قاسمًا مشتركًا بين كل الناس، ومعالم تدلهم على وسائل البقاء والتقدم والتعمير.

والقصص القرآني يعطينا أيضًا - في حركتنا التاريخية - ذاكرة ضرورية للحاضر والمستقبل. . . إنه (الحاسوب) الذي يغذّي الحاضر بالمعلومات الصحيحة المعتمدة على تجارب صادقة، ومن ثم يمكن استخلاص الطرائق الصحيحة لحركة المستقبل!!

والفيصل الأساسي بيننا وبين الماديين أننا نمزج بين الماضي والحاضر والمستقبل، ونراها نهرًا واحدًا دافقًا، يصعب وضع حواجز بين تيّاراته وأمواجه.

فالزمان كتلةٌ واحدة، ومصطلحاتنا البشرية المعروفة: الماضي، والحاضر، والمستقبل مجرد مصطلحات نسبية معرفية، لكنّ سرعة الأمواج وقوتها تحول دون إقامة حواجز سميكة بينها؛ كما أن هذه الحواجز خاصة بنا نحن البشر، ولكنها بالنسبة لعلم الله لا قيمة لها، فالثلاثية الزمانية عنده - سبحانه وتعالى - سواء. . . ومن هنا نجد الحديث في القرآن الكريم عن محتويات الجنّة، وعن تنعّم المؤمنين فيها، وكأنه رسْم للوحة مرئية ومشاهدة، لا تفصلنا عنها هذه الآلاف من السنين.

ونحن نلمح هذا المعنى في أي حديث قرآني عن الغيب، فهو حاضر في تفاصيله ودقائقه تمامًا، كما أن هذا الغيب يجب أن يكون حاضرًا في وعي المسلم ووجدانه حضورًا يصل إلى درجة اليقين الكامل، وإلا فقد الإيمان أول شروطه.

إن الإيمان بالغيب، واندماج هذا الغيب، فى رحلة الزمان كلها؛ لا بُدَّ أن يكون مرتبطًا بالماضى والحاضر والمستقبل، وكأنه جزء لا ينفصل عنها إلا بمقدار الحساب والجزاء (فى يوم الفصل ـ يوم القيامة)؛ هذا الإيمان هو الفيصل المكين بين المؤمنين والماديين الدنيويين (العلمانيين).

وهذا الغيب شىء مختلف تمامًا عن الأسطورة (الميثولوجيا) التى يحاول العلمانيون إضافتها إلى الغيب بينما هى وهم وخرافة، وليست كالغيب مستقبلاً محدد المعالم ينقله إلينا من يحيط بكل شىء علمًا، ويملك الماضى والمستقبل، ويستحيل عليه الكذب أو إخلاف الميعاد!!

لقد كان ممكنا ـ عندما كانت المنهجية واضحة ـ أن يتم استيعاب أسلافنا للفقه الحضارى والعلمى للقرآن الكريم عمليًا خلال قرنين من الزمان، بعد ظهور الإسلام؛ حيث تمكنت قواعد الدعوة فى الأماكن التى ساح الإسلام فيها. وقد كُنَّا أهلاً لأن نجد على مشارف القرن الثالث الهجرى نظريات سياسية، واقتصادية، واجتماعية، ومفاهيم ومصطلحات محددة نقتحم بها عالم الحضارات الموجودة، ونقود أهلها بها إلى الحضارة الإسلامية...

لكنَّ تضخم «علم الكلام» وما أفرزه من تيارات جدلية عقيمة كان على حساب الفعالية الإسلامية فى علوم الحياة الأخرى، وأيضًا جاء الاتجاه إلى ترجمة علوم اليونان ـ بهذه الطريقة العشوائية، التى طبقها الخليفة المأمون، على مشارف القرن الثالث الهجرى ـ خطوةً غير حكيمة؛ بل غير منتظمة انتظامًا ينسجم مع البناء العام للرؤية والفعالية الإسلامية، فوقع الارتباك فى وقت كان من الممكن أن يكون بداية انطلاق عالمى إسلامى جديد.

وقد كانت المنهجية السليمة كفيلة ـ بعد هذين القرنين ـ بإغناء الحياة الإسلامية فى كل مجالات الإبداع الإنسانية، والثقافية، والعلمية؛ وكان كل قرن قادراً على أن يندفع فيه المسلمون بقدر من الفعالية؛ يمكنهم من أن يسبقوا كل الحضارات إلى عصر الفضاء والاتصالات!!

إننا لسنا إزاء محاكمة لمسيرتنا الحضارية، لكننا ـ حتى فى هذه الأيام ـ مطالبون باكتشاف عوامل الخلل فى هذا التاريخ، انطلاقًا من أننا مؤمنون بأهلية الإسلام

الدائمة للفعل الحضارى، وصلاحيته لقيادة كل زمان ومكان؛ بعد أن ختم الله به الرسالات، وجعله حجته الباقية، وكلمته الخاتمة إلى يوم القيامة. وإنه لضرورى أن تعتدل المعادلات كلها فى أيدينا، وأن تتوازن رؤانا بعد أن وجدنا أنفسنا فى هذا المحيط الحضارى المتدنى.

وإذا كنا نأخذ على أوروبا تركيزها على الفعالية المادية، وإهمالها للجوانب الإنسانية والأخلاقية، فإننا يجب أن نأخذ على أنفسنا تقصيرنا الشديد فى الفعالية المادية، واستهلاكنا لطاقتنا فى مجالات كلامية عقدية أو سياسية... لقد اختلّ الميزان فى أيدينا، كما اختلّ فى أيديهم... لقد شدّ كل منا الحبل بطريقة خطأ، وكانت مسيرتنا التى انتهت بنا إلى واقعنا المعاصر أكبر حاجز حال دون تفهمهم لنا... فما كان ممكنًا أن يتواضع الإنجليز ليفهموا ما عند المسلمين الهنود من أفكار عظيمة، مع أنهم يسوقون هؤلاء المسلمين الهنود سوق الأنعام، وما كان ممكنا للحملة الفرنسية التى جاءت بالمطبعة، وبالسلاح الحديث، أن يؤمن رجالها بأن لدى هؤلاء المصريين المتخلفين دينًا يحمل قيمًا حضارية هم أحوج الناس إليها... إن الموْقعين المختلفين للسيد المستعمر وللعبد المقهور لا يسمحان بالتحاور الفكرىَ ولا بالفعالية الحضارية، فإن القوة تعمى عن الحق، ومن هنا انتهت المدنية الأوروبية إلى نجاحات كبيرة فى مجال العلم والتقنية؛ مقطوعة عن خشية الله، وعن احترام إنسانية الإنسان؛ وعن مجرد التفكير فى التعاون مع الآخرين الضعفاء، على الخير الإنسانى العام!!

وإذا كان بعض المفكرين يرون أنه لولا الإسلام، الذى حوّل الطبيعة من معبود يُخْشى منه ويسجد الناس لشمسه ونجومه؛ إلى طبيعة مأنوسة موضوعة للبحث والتشريح والتسخير.. لولا هذا الإسلام - بهذا المنهج الجديد - لبقيت الحضارة الإنسانية الوثنية والكنيسة التى تحارب العلم هى المسيطرة على العالم... إذا كان هذا الذى يراه بعض المفكرين صحيحًا - وهو صحيح - فإن غيبة المنهج الإسلامى الرشيد فى البحث والتأصيل، بالإضافة إلى أوضاع المسلمين المتخلفة فى القرون الثلاثة الأخيرة قد أعطت أوروبا الفرصة لكى تؤمن بأنها قامت على سواعد أبنائها وحدهم، وبأنه لا يمكنها أن تكون قد استفادت من هؤلاء المسلمين المتخلفين!!

ولن يتغير الفكر الأوروبى فى تعامله مع الحضارة الإسلامية إلا يوم يظهر منهج جديد يفرض على العقل الأوروبى احترامه . . . منهجٌ بعيد عن الانهزامية الدونيّة، والتسوّل، باسم الحوار، أصيلٌ فى انتمائه للإسلام، منفتحٌ فى تعامله مع الإنسان والكون والحياة، متفاعلٌ تفاعلاً متوازنًا مع كل الحقائق العلمية والنتاج الحضارى لها . . .

* * *

فى الآداب والعلوم والفنون ـ جميعها ـ يكون التطبيق قبل التنظير التركيبى !! فالتطبيق الذى يستلهم الجذور والأسس الكلية ـ بوعى أو من دون وعى، شعوريٍّ أو غير شعوريٍّ ـ يسبق مرحلة التنظير بالمعنى العلمى المعروف للتنظير . . . ومن هنا لا بدَّ أن يتحرك عقلنا الأدبى والعلمى إلى الأمام فى مجال الإبداع . . . وصولاً إلى التنظير الكامل من خلال محاولات التطبيق المتنامية .

وعندما نتحدث عن ضرورة وجود رؤية أدبية وعلمية وإنسانية ملتزمة بمنهج الإسلام، وبالانتماء للوعاء العربى الحضارى الإسلامى ؛ تتحاور مع الرؤية الأوروبية العلمية والفلسفية المستقاة من الفكر الحر (الليبرالى)، والرأسمالى المنطلق من النظرة الأوروبية للكون والإنسان والحياة . . . عندما نتحدث عن ضرورة مثل هذه الرؤية ؛ فيجب أن يكون واضحًا فى أذهاننا أن الأصول الكبرى، والفقه الواعى أو الفطرى بهذه الأصول لا يكفلان إيجاد تصور إبداعى تنظيرى كامل المعالم والقسمات ـ دون الفعالية الإنسانية ـ مع أنهما قادران فعلاً على تحريك السلوك الفردى والاجتماعى فى الاتجاه المنشود !!

لقد بقى المسلمون نحو قرن بعد ظهور الإسلام يعملون على نشر الإسلام، وعلى نشر اللغة العربية ؛ منطلقين من الأصول، ومن الوعى برسالتهم، وكانوا فى سلوكهم النموذج الأصلى والأبقى لهذه الأصول . . . لكنهم لم يدخلوا ميادين التنظير والتقنين إلا بعد أن قدموا نماذج تطبيقية عملية . . . لقد كان عدل القضاة من خلال آلياته ووسائله التنفيذية أسبق من التنظير للقضاء، وكان تطبيق الشورى أسبق من التفكير فى وضع «النظريات السياسية الإسلامية» فى فكر الماوردى أو

غيره. وكان تطبيقهم الاقتصاد الإسلامى فى حياتهم الفردية والاجتماعية ـ اعتماداً على الأصول ـ أسبق من التفكير فى إنشاء نظام «الخراج» أو غيره.

إن الأصول تشكل الوعى وتنقّى الفطرة وتقدم الاتجاه العام، لكنها لا تسمح بتشكيل «النظرية» إلا بعد مزج الأصول بعالم الإنسان الواقعىّ ـ فى حالاته المختلفة ـ وبعد إعمال العقل فى ضوء التجارب البشرية ؛ وصولاً إلى الإبداع التنظيرى الذى قد يبقى آماداً متطاولة قابلاً للمراجعة والإخصاب !! ولا يمكن أن يكون التنظير بعيداً من التجربة الإنسانية والإعمال العقلى إلا إذا أريد به ـ وله ـ أن يكون مجرد قواعد تربوية أو وعظية تفتقد الروح التركيبية والنماذج العملية والفنية التى تعطى النظرية الروح، والمصداقية، والقابلية للاستمرار.

* * *

وحين قرأت للصديق الكبير الدكتور/ عماد الدين خليل حديثًا عن المدخل إلى «إسلامية المعرفة»[1]، يذكر فيه أن «المحور التنظيرى» هو المدخل الضرورى للمحور التطبيقى... خطر لى أنَّهُ يقصد بالمحور التنظيرى: ضرورة الوعى العميق بالأصول الكلية والمعالم العامة التى تمثل جوهر الرؤية الإسلامية للمعرفة بشتى فروعها... لكنى عندما واصلت للتعرف على وجهة نظره وجدته يكاد يقترب من بعض العناصر التى لا يمكن الحديث عنها إلا بعد وجود مستوى معين من التطبيق. إنه يطالب هذا المحور التنظيرى بأن يقدم للمحور التطبيقىّ «تعريف المصطلح، وضروراته الملحة، وتصنيف الحلقات الأساسية للمعرفة»، «وكذلك يمكن أن يتولى المحور التنظيرى تقديم وتصنيف المقترحات الضرورية التى تعين على تنفيذ العملية وتحويلها إلى أمر واقع ذى فاعلية مؤكدة، وقدرة ـ فى الوقت نفسه ـ على الاستمرار والانتشار»...

وما يقوله الدكتور/ عماد الدين خليل صحيح تمامًا فى بعض الفروع المعرفية التى تتمتع بنماذج تطبيقية قويّة فى تاريخنا، وذلك مثل المجالات الاجتماعية أو

(١) انظر: عماد الدين خليل: المدخل إلى إسلامية المعرفة، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ص: ١١، وما بعدها، الطبعة الثالثة (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

الفلسفية أو الاقتصادية . . . بيد أن الأمر فى الأدب ـ بأجناسه الحديثة من رواية وقصة، وأقصوصة، ومسرحية ـ لا يتمتع بهذا الرصيد، وما قُدِّم فى القرون الأخيرة من أعمال تطبيقية تعبّر عن التصور الإسلامى للكون والإنسان والحياة يُعدّ قليلاً جدّا؛ ولذا فنحن فى حاجة إلى تعميق ؛ تكتمل له الأدوات الفنية فى الأجناس الأدبية المختلفة حتى يصبح تنظيرنا قريبًا من الكمال .

وما يُقال فى الأدب يقال فى علوم الاقتصاد والاجتماع وشتّى المعارف؛ شريطة أن نكون واعين بقسماتنا الخاصة وبفروقنا الجوهرية عن الحضارة الغربية؛ من إيمان بالآخرة مع الدنيا، وبالله مع الإنسان، وبالغيب مع المحسوس؛ وإذا كان العلمانيون يعمدون ـ عن جهل أحيانًا، ومكر فى أغلب الأحايين ـ إلى إنكار «الله» و «الآخرة»، وإلى إذابة الجسور بين الأسطورة والغيب تشويهًا للغيب من جانب، وتعميقًا للدنيوية الحسيّة الرافضة للدين من جانب ثان، وتحطيمًا لمعنى الوجود الإنسانى المتميّز المسؤول من جانب آخر ؛ فإننا يجب أن نقاومهم بالإبداع الذى يترجم رؤيتنا الإسلامية . . . تلك الرؤية التى تقدم العلاقة الموضوعية الكريمة المتوازنة التى تربط الإنسان بالله، والروح بالمادة، والمحسوس بالغيبى، والدنيا بالآخرة . . . ومن ثم تدين الرؤية الأحادية والتمزيقية والمادية العمياء للإنسان والكون!!

والحق أن منطق الإسلام يدحض هذا كله، ويؤكد المعنى والقيمة والمسؤولية لكل التاريخ البشرى ؛ فى إطار خصوصية الإنسان وتميزه ومسؤوليته الحضارية والإنسانية . . . ويتضح هذا فيما ورد فى كتاب الله :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الأنبياء : ١٦].

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ [آل عمران : ١٩١].

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء : ١٧ ـ ١٨].

لكن هذا المنهج الإسلامى (الحضارى الإنسانى الشمولى) يحتاج إلى فاعليتنا وجهادنا وإبداعنا . . . !!

فهل يترجم المسلمون تصورهم إلى واقع عملى كما ترجم الماديون تصورهم إلى واقع عملى، سيطروا بأدواته على عقول الناس، وخدعوهم عن «الحق الكامل» و«الميزان الواحد» والمنهاج العلمى (العقلى التجريبى) المتعاون ؟!!

إن تحقيق هذا الإقلاع هو التحدى الذى ينتظره منهم الوعى البشرى كله، وتنتظره منهم الإنسانية التى تكاد تهوى إلى القاع ؛ بخضوعها للمنهاج المادّى الدنيوى الصراعى ؛ الذى لا مكان فيه للضمير، ولا للروح، ولا للعدل، ولا لأخوّة الإنسان لأخيه الإنسان . . !!

* * *